مجلة النجف

مواضيع العدد وكتابه

١ ـ مع مجلة العرفان فيما نعيبه لرجال الدين	بقلم هادي فياض
٢ ـ تنبوآت عن الحياة في الكواكب السيارة	مترجمة
٣ ـ ساحرة (قصيدة)	للدكتور صالح جواد الطعمة
٤ ـ الكتاب والسنة وكفى	بقلم العلامة الشيخ محمد جواد مغنيه
٥ ـ شهيد الحق والعدالة (قصيدة)	لفضيلة الشيخ حسين الصغير
٦ ـ التربيه الدينيه	للدكتور احمد حسن الرحيم
٧ ـ لن يفلح قوم اسندوا امرهم الى امرأة	للاستاذ حسين فهمي الخزرجي
٨ ـ فيلسوف الحب الآلهي (اسبنوزا)	للدكتور صالح الشماع
٩ ـ الدكتور عبد الجواد الكليدار	بقلم الاستاذ خضر عباس الصالحي
١٠ ـ خزائن الكتب في خراسان	بقلم الاستاذ الشيخ محمد هادي الاميني
١١ ـ تخميس بيتين وصحيحها	بقلم الاستاذ الشيخ عبد الغني الخضري
١٢ ـ الحركة الصهيونية	جمعية مكافحة الصهيونية
١٣ ـ مذكرة عن المياه القذرة	غرفة تجارة النجف
١٤ ـ المعرفة الميتافيزية والحرية عند كنت	بقلم الشيخ سليمان المدني
١٥ ـ اخبار المجلة	

مطبعة الآداب ـ النجف ـ تلفون ٣٩٨

المعرفة الميتافيزية والحرية عند «كانت»

رد على الاستاذ آصفي

بقلم الفاضل الشيخ سليمان المدني
الطالب في كلية الفقه

كتب الأستاذ آصفي في العدد الثامن عشر من مجلة النجف الغراء، الصادر بتاريخ ٢٠ / ١١ / ١٩٦١ م بحثاً عن آراء (كانت) في المعرفة الميتافيزية والحرية، إنتهى فيه الى أن (كانت) يعتبر مفاهيم الحرية والخلود والله أفكاريا ثانوية، تبعية .

والذي يبدو أنني لا أستطيع الاقتناع بهذا الاستنتاج، أو اصطناع هذه النظرة عن (كانت)، على الرغم من اعتقادي بفشله في إقامة ميتافيزيقا جديدة، تعتمد على التجربة كعلم، غير أني لا أستطيع مناقشة هذه الفكرة من خلال مذهب (كانت) نفسه، في هذا الوقت، مع العلم بأني اعتبر فكرة ﴿ الله ﴾ هي تاج المذهب الكانتي أي النقطة التي ينغلق مذهبه عندها .

لذلك أكتفي بعرض موجز لمذهب كانت ومنهجه، مبيناً النتيجة التي انتهى اليها، باتباعه لهذا المنهج، وكيف انتهى .

يذهب الاستاذ آصفي الى أن (كانت) كان قد انتهى الى نفس النتيجة التي انتهى اليها (هيوم) أو الى نتيجة تقرب منها . غير أن (كانت) في الواقع كان على الضد من (هيوم)، فهاهوذا يحاول توحيد المعرفة الانسانية، ويحاول أن يضع منهجاً لهذا التوحيد، هذا هو المنهج الرياضي، فقد اندهش (كانت) بجمال التآليف الرياضية، وأبهر بدقة براهينها، فأراد أن يصنع للميتافيزيقا ما صنع للرياضة، فتستقيم كما استقامت الرياضة .

لذلك فهو يصادر على الرياضيات، فيتخذ منها معياراً لكل ميتافيزيقاً مستقبلة تريد أن تكون علماً . ولا أدل على ذلك من الكتاب الذي ألفه في الفترة بين الطبيعتين من كتاب ﴿ نقد العقل الخالص ﴾ .

ويصادر (كانت) على الرياضة لأنها العلم الواحد، ولذلك لم يكن عسيراً عليه أن ينظم جميع أجزاء المعطيات لنا في الحواس في نظام واحد كلي، متقن التركيب . فهو لا يميز بين علم وعلم، والتجربة عنده تصير في طريق واحد ليس إلا، ويشملها العقل وحده، وقد عبر عن ذلك بقولته المشهورة : كل إدراك حسي بالضرورة . فاصبح الوجود هو ذلك الوجود الثابت، المتجزىء، الذي ندركه عن طريق التجربة،

أي الوجود في المكان .

ولذلك ينظر (كانت) إلى الزمان على أنه ذو طبيعة مكانية ، فيصلبه الحزكة ، ويجمده عن التطور ، وخصائص الزمان هي عين خصائص المكان ، فهما إذن ماهية واحدة من حيث اتصالها بالوجود ، ولذلك لم يشأ (كانت) أو بعبارة أصح لم تكن له حاجة لأن يحدثنا إلا عن صورة واحدة من الحساسية ، هذه الصورة هي المكان ، فالعدد عنده مثلا يتضمن الجمع التوالي لوحدات متجاورة ، ومن أجل هـذا لا يفرق بين العد ورسم العدد ، بل هو يخلط بينهما ، وبذلك يصيب العد الناجح فيتجمد ، وهي نفس المغالطات التي وقع فيها زينون الايلي من قبل .

ومن هذه المصادرة التي قام بها (كانت) على الرياضيات يستنتج قبلية المكان والزمان ، وقد ساعده منهج الاستنباط على هذا الاستنتاج . فالكلية والضرورة اللتان تتصف بهما الرياضة لا يتأتيان من التجربة ، فمن أين جاءا يا ترى ؟!

يجيب (كانت) بأن الاذهان هو الذي صنعهما وحدد لهما الحساسية ، (أما الفكر فحاصل على معان رابطة يطبقها على الحدود) (١) ومعاني الفكر هـذه معان سابقة على التجربة ، تقدماً منطقياً ، لأنها ذاتية . غير أنها لا تصلح أن تطبق على الوجود اعتسافاً ، وانما بالتجربة ، هي غير ذات قيمة بدون المادة ، ولذلك فهي غير ذات قيمة بدون المادة ، ولذلك فهي غير قابلة للتطبيق على مطلق الوجود ، وبالتالي هي ليست معارضة ذاتية كما يقول أفلاطون وديكارت . إنها عند (كانت) لا تعدو شروطاً لامكان التجربة ، ولذلك يرفض كون التجربة ذهنية تقوم على أساس المنطق الصوري كما هي في العلم اليوناني . فالمنطق ليس ميزانا للعلوم كما يقول ارسطوا ، وانما هو قانون لعلم الوجود .

غير أن هذه المبادىء لا تكفي لغلق دائرة التوحيد التي ينشدها (كانت) ، فالمعارف التي نتحصل عليها عن طرق الحساسية والفهم تبدو متوازية ، حيناً ، وتشاهد متكثرة ، أحياناً أخرى ، فكيف إذن انتهى (كانت) الى توحيد المعرفة ، أو بعبارة أخرى إلى تكوين مذهب مغلق شامخ بالتصورات ؟

يقول (كانت) : إن هذه المبادىء لا تستطيع أن ترد ظاهرة مشروطة أخرى . لأن ذلك يستلزم التسلسل الى غير النهاية . لذلك فالمشروط يستلزم المطلق ، أي اللا مشروط ، حتى لا يحدث هذا التسلسل .

---

(١) الدكتور مراد وهبة : المذهب في فلسفة برجسون ص ٢٥ .

وهذا الانتهاء إلى اللامشروط ، هو عملية ارتدادية ، يقوم بها الذهن ، في سبيل ربط المعرفة الانسانية ، فى نظام كلي موحد محكم التركيب .

وفى هـذه النقطة بالذات نشاهد (كانت) يدعي سبقاً وسلفاً بأن الذهن حاصل على ثلاثة أفكار أولية ، يرجع اليها جميع أجزاء المعرفة ، لكي تتم الوحدة المطلوبة ، هذه الأفكار هي العالم والنفس والله .

الجدل الصوري يرمي إلى حاجة الفكر الانساني نحو التوحيد ، لأن الفكر لا يفهم إلا أن يوحد ، وهذه الافكار الثلاثة هى النقطة التي تلتقي عندها أطراف المعرفة البشرية . ولقد استخدم (كانت) ثلاثة أقيسة في سبيل التوصل الى التوحيد ، القياس الاقترانى ، وقـد استخدمه فى الفحص عن وحدة الظواهر النفسية ، والقياس الشرطي المتصل وقد استعمله في الكشف عن الوحدة التي تنتهي عندها الظواهر الطبيعية أما القياس الشرطي المنفصل ، فقد خص به من جامع للموضوعات الفكرية ، تلك الموضوعات التي وحدها (١) وهكذا يصل كانت الى الوحدة ، بطريق برهان رياضي ، هو ذلك البرهان الذي يستعمل لاثبات التطابق بين مثلثين ، اجتمعت لهما عناصر التطابق .

إلا أن هذه الوحدة التي انتهى اليها (كانت) بواسطة الجدل الصوري هي وحـدة صورية ، فعليه إذن أن يضم اليها الجانب المادى من المعرفة الانسانية ، ذلك الجانب الذى يقوم بتنظيم التجربة ، وكتاب (نقـد العقل العملي) هو المقدمة التي حاول بها (كانت) الربط بين الجانب الصورى والجانب المادى ، من المعرفة الانسانية في تلك الوحدة .

وينتهي (كانت) الى النتيجة القائلة : بأن ملـكة الجمال هي حلقة الوصل بين الجانب الفكرى والجانب العملي ، من المعرفة ، أي بين الصورة والمادة ، وقد أبرز هذا التقرير صريحاً في كتاب ﴿ نقد الحـكم ﴾ .

فهمة العقل عند (كانت) إذن تنحصر فى أن يعالج الضرورة والآلة ، أما الارادة فانها تتوسم الخير في الحرية ، وملـكة الجمال هي التي تحكم الغائيـة ، باعتبار أن الغائية معلولة للحرية ، وبذلك توضح العلاقة بين ما هو كائن ، وما ينبغي أن يكون ، من قبل هذه الملـكة .

فالغائية إذن تعمل في مادة خاضعة للقوانين الآلية ، ولذلك فالعلم لا يكتفي بالتفسير الميكانيكى ، إذ لابد من التفسير الغائي بجانبه ، والموجودات المتعضونة تستلزم التفسير الغائي ، بجانب التفسير الميكانيكي ، فأجزاؤها ترتبط بالشكل فى تحققها ، وهذا الـكل هو علة لها ، وبالتالي فهي تتضمن غاية . وغائيـة

---

(١) لشرح هذه المصطلحات انظر الجزء الثاني من كتاب المنطق للحجة المظفر .

(كانت) هذه غائية باطنة ، صورية لا موضوعية ، فالأنا هو الذي يصبغها على المدرك (بفتح الراء) ، وعلى هذا الأساس يكون التفسير الميكانيكي للطبيعة مشروعاً . وتصبح الغائية منظمة للاشياء ، وليست محددة لها .

وينقل (كانت) هذا الحكم الغائي من الموجودات العضوية إلى الطبيعة كلها ، فينظرها من حيث هي نظام وضع على نحو خاص ليؤدي غاية ، والغاية القصوى التي تؤديها الطبيعة في نظر (كانت) هي غاية أخلاقية ، فالناس يتساءلون ما هي الغاية من كذا وكذا ، حتى يصلوا الى هدف أخلاقي .

والهدف الأخلاقي هو الخير الأسمى عند (كانت) ، والانسان كائن أخلاقي ، ولذلك فهذا الهدف هدفه . ثم أن الخير الأسمى هـــذا يتركب من حدين ، هما الفضيلة والسعادة ، ولكن ما هي العلاقة بين الحدين ؟.

يقول (كانت) : إن العلاقة بين الفضيلة والسعادة ليست تحليلية ، فهو لا ينظر الى الفضيلة على أنها تتضمن السعادة ، كما يراها الرواقيون . لأن التجربة تناقض ذلك . فالسعادة معنى حسي . بينما الفضيلة معنى عقلي ، فهما إذن يرجعان الى قانونين مختلفين ، تمام الاختلاف . قانون الفضيلة خلقي ، أما السعادة فهي تعتمد على قوانين الطبيعة الجزئية .

وكذلك لا يكون العكس صحيحاً ، بمعنى أنه غير صحيح أن السعادة تتضمن الفضيلة ، كما يقول الأبيقوريون . لأنه العقل يثبت كذب هـذا المدعى ، طلب السعادة يقصد العمل الأخلاقي ، وبالتالي فهو يقصد الفضيلة ، لذلك يذهب الى كون العلاقة بين الفضيلة والسعادة تركيبية .

غير أن الهدف الأخلاقي لا يتحقق إلا اذا كانت القداسة ممكنة ، أو قل والمعنى واحد عند (كانت) إن الهدف الأخلاقي لا يتحقق إلا اذا كانت الفضيلة كاملة : بيد أن طبيعة الانسان الحسية لا تستطيع أن أن تصل الى هذه القداسة ، فكيف إذن يتحقق الخير الأسمى يا ترى ؟

يقول (كانت) : إن بامكان الانسان أن يرتقي نحو الفضيلة الكاملة ، شيئاً فشيئاً ، إذا أضعف ميوله الحسية ، وحتى يتم هذا الترقي يجب أن تكون النفس خالدة ، إلا أن خلود النفس وحده لا يكفي ، فى بلوغ الانسان الى هذه القداسة ، بل لابد أن يكون هناك كائن له سلطة التأثير في الطبيعـة ، وأن تتحد الفضيلة والسعادة فيه اتحاداً تاماً ، هذا الكائن الكامل فى ذاته هو « الله » .

وهكذا يربط (كانت) بين عالم الطبيعة وعالم الحرية ، أن بين فكرة الغائية في استعمالها النظري وبينها في استعمالها العملي . ولكن كيف توصل (كانت) الى هذه النتيجة ؟!

العقل الكانتي فاعل أصيل ، يركب الموضوعات على غرار التركيب في العلم الرياضي ، لذلك فقد استعمل (كانت) ـ لكي ما يتوصل الى هذه النتيجة ـ مبدأ التحليل والتركيب ، وهما من مقومات المنهج الرياضي . فيبدأ أولا بالتحليل ، وبذلك يرجع القيم الأخلاقية الى الخير الأسمى ، ثم يأخذ في التركيب

فيستنبط خلود النفس ووجود الله ، وبذلك ينفلق المذهب على نفسه ، ولم يبق لقراء فلسفته من عمل إلا الانصات .

نتائج : ـ

١ — إن (كانت) على الضد من (هيوم) . فقد اعتبر (هيوم الفلسفة طريق في البحث بغير موضوع ، فليس غاية الفلسفة عنده هو أن تبحث المسائل لتصل فيها الى نتائج ، ولذلك قام بتحليل جميع ضروب الادراك المختلفة ، وتحليل القضايا وما فيها من مدركات ، وينادى (هيوم) فى هذا التحليل إلى أبعد مسافة ، حتى يعلن الشك جهرة ، فهو لم يسمح في نعت نفسه بالشك ، لأن الفلسفة لا تعدو الشك في نظره . لذلك هو يشك في كل ميتافيزيقا تريد التوصل الى نوع من القضايا ، لا في الميتافيزيقا القديمة فقط كما فعل (كانت) .

المعرفـــة عند (هيوم) هي مجموعة من الادراكات ، والادراكات بعضها معادة وبعضها انفعالات ، الانفعالات هي الظواهر الوجدانية ، وهي إدراكاتنا البارزة الأولية ، ومنها انفعالات التفكير والحواس . أما المعاني فهي صور للانفعالات . على أن هناك المركب الصناعي من كلا النوعين ، كالمعاني المجردة ، وهو ينكرها ويرفضها . أما العلاقات بين الانفعالات والمعاني فهي تقوم على أساس قانون « تداعي المعاني » فى المكان والزمان والعلية ، التي هي قوانين الذهن الأولية .

ولـكن ما شأن العلوم الطبيعية عند (هيوم) ؟

قيمة العلوم الطبيعية تابعة لقيمة العلاقة العلية ، وهذه العلاقة مجرد عادة ذهنية ، فما هي بغريزية ، ولا بمكتسبة ، أما العادة فتتولد من التكرار . وهكذا يذهب (هيوم) في التحليل حتى ينكر الضرورة والموضوعية ، ويخرج من ذلك بأننا لا نستطيع أن ندرك شيئاً مغيباً عنا لا نتصل به بواسطة الحواس ، فلا يبقى موضع للتحدث عن وجود الله والنفس حتى من الناحية الفرضية .

وكذلك لا يبقى محل لقول الاستاذ آصفي من وجود شبه بين نتيجة (كانت) فى هـذه الناحية ، وبين تلك النتيجة البشعة التي انتهي اليها (هيوم) . (فهيوم) يفرق الادراك ويجزؤه ، بينما يسعى (كانت) لتوحيد المعرفة ، ثم يضفي عليها الكلية والضرورة والموضوعية ، تلك الصفات التي يرفضها هيوم رفضاً باتا .

٢ — إن كون النائية معلولة للحرية ، أي أنها حرية متمددة ، وكون تحقق القداسة يتوقف على خلود النفس ووجود الله ، يدل دلالة واضحة لا تقبل التأويل على أن مفاهيم الحرية والنفس والله هى أفكار أولية عند (كانت) لا أنها أفكار ثانوية ، كما يقرر الاستاذ آصفي تبعاً (لمانتيهلير) وإلا لانهدم مذهبه على رأسه . بل أقول أكثر من ذلك : إنها موجودات موضوعية ، قبل أن تكون أفكاراً ذهنية أولية .

سليمان المدني

النجف الأشرف :